بسم الله الرحمن الرحيم

الاثنين 3/12/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الكهف (30)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك.. وبعد:

فنحن في خواتيم تفسير سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا * قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 107-110].

ختمت السورة آياتها بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ وفي مثل هذه الآية قوله جل وعلا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]، أي سيلقي الله تعالى محبتهم في قلوب الخلائق.

وفي مثلها قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: 1-3].

مصطلح ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كثيراً ما يرد في القرآن الكريم حتى زاد ذكره عن خمسين مرة، وصار طفل المسلمين الصغير يحفظه، والكبير يقوله باللاشعور لديه.

حاولت مرة أن أفك هذه الكلمات لأقرأ ما فيها من معان غزيرة فلاحظت أن:

1- ربط الله عز وجل في هذه المواطن التي زادت عن الخمسين بين الإيمان والعمل في دلالة واضحة أن **إيمان بغير عمل لا ينفع، وعمل من غير إيمان لا ينفع** .

ولذلك وجاءت الآيات السابقة لتقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 103-104].

الإيمان حركة فما أن يؤمن المؤمن حتى يعمل، ولما عَرَّف العلماء الإيمان قالوا: (**الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل**).

وقالوا: (الإيمان هو ما استقر في الجَنان (القلب)، ونطق به اللسان، وشهدت عليه الأركان).

نطق به اللسان:

تراه يسب الدِّين أو النبي أو الصلاة أو الحجاب أو المسلمين ثم يَدَّعي الإيمان!!

قَالَ سَيِّدُنَا مُعَاذٌ: **يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»** [الترمذي].

لما درس العلماء فقه المعاملات المالية لاحظوا أن الركن الرئيس في كل التعاملات المالية إنما هو (**الصيغة**) أي: الإيجاب والقبول، فما تنطق به هو ما يؤخذ به.

فنحن لا نعرف ما في قلبك ما لم تنطق به، فإن كان ما تعبر به مخالف لما في قلبك فأين الإيمان؟!

وشهدت عليه الأركان:

ينبغي لتصرفاتك أن تدل على إيمانك، فإن كان لا يصلي ويدعي الإيمان بالقلب فهو كاذب.

ما الإسلام إلا الاستسلام لأوامر الله فإن كنت تخالف أوامره فلست بمسلم والله يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43].

بالمقابل من عمل بلا إيمان فأجرته في الدنيا ولا أجرة له في الآخرة.

لخبراء الإعلام مصطلح يسمونه: (**إبرة تحت الجلد**) مفاده أن من أراد أن يجعل مصطلحاً أو فكرة أو خَبَراً يستقر عند السامعين فليكرر ما يريد ترسيخه من عبارة أو كلمة أو فكرة في أوقات متتابعة ومتوالية لفترة معينة ومحددة عندهم لعدد من المرات والساعات وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة مما يجعل هذه الكلمة أو التعبير أو المصطلح تترسخ وتتجه لهذا الذي تريد في اللاوعي لديه.

فعندما يقترن الإرهاب مثلاً بالإسلام في محطات الفضاء والأخبار فسيصير اللاوعي في قلوب الناس يستقر عندهم أن المسلم يخيف، وهذا معنى قولهم (**إبرة تحت الجلد**).

وبهذه الطريقة يُعلِّمُ القرآن الكريم الناسَ فيربط الإيمان بالعمل الصالح عبر تكرار مصطلح ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليصير ذلك مستقراً في عقلهم الباطني وعقول جميع السامعين.

2- يقول الله: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وليس (**فعلوا الصالحات**).

فعل: في اللغة الغربية: هو العمل الذي يحدث مرة واحدة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: 1]، فالقصة حدثت مرة واحدة.

قال تعالى على لسان فرعون لسيدنا موسى مذكِّراً إياه بقتل المصري: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: 19].

وبعد أن حطم سيدنا إبراهيم الأصنام قال له النمرود وأتباعه ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: 62].

أما **العمل**: فهو الذي يتكرر، بإشارة من الله أن المؤمن كلما أنهى عملاً صالحاً افتتح عملاً آخر.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَنْ يَشْبَعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعُهُ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الجَنَّةُ**» [الترمذي].

الشيء الوحيد الذي نستفيده من وجودنا على الأرض هو العمل الصالح، فلا فائدة من الشهادات أو الدرجات العلمية العالية أو المال الكثير أو الجاه العريض أو العلاقات الاجتماعية... ما لم تكن مسخرة لعمل الصالحات.

سألت أحد كبار التجار: إذا لم يكن لدي اسم في عالَم التجارة وأردت أن أصنعه على مستوى الشرق الأوسط فكم أحتاج من وقت لذلك؟ فقال: ثلاثين سنة.

فإذا كنت محتاجاً لثلاثين سنة حتى يكون اسمي معروفاً على مستوى الشرق الأوسط، فكم أحتاج ليكون اسمي معروفاً في عالم السماء؟!

هذه الأزمة هي من أنسب الأوقات في حياتك لعمل الصالحات فقد كان أحدنا قبل الأزمة يستقلُّ أن يساعد إنساناً بربطة من الخبز أما الآن فهي مفيدة جداً، وخاصة وأن الله يرى أناساً فاجرين يتفننون في الفجور والشرور ويراك تتفنن في فعل الخير والمساعدة للناس.

أرسل إلي أحدهم رسالة يقول فيها: شاهدت في إحدى الدول العربية من يضع على محله مجموعة ربطات من الخبز وعليها لافتة مكتوب فيها: (هذا الخبز لمن لا يستطيع أن يشتريه)، فجعل المحتاج يأخذ والموسر يضع فيه.

قد يحتاج الناس مساعدتك بجاهك أو بإطعام الطعام أو بتقديم شيء بسيط من المال...

3- قال الله ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾ بواو الجماعة، بإشارة إلى أن العمل الجماعي أفضل من العمل الفردي.

4- قال الله ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ وهي اسم جمع محلى بـ (ال) يفيد العموم، فبإمكانك أن تتخير من الصالحات ما شئت لكن لا تقعد من غير عمل صالح.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ , أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا -يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ- وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامِ»** [الطبراني].

قد تُدْخِلُ السرور على أخيك المؤمن بعزائه أو مواساته أو مداواته أو بالوقوف معه أو بالشفاعة له أو بعونه مادياً بزيارته أو بنصرته...

قال لي أحد الإخوة أريد أن أدعوك دعوة فسألته عن مكانها وموعدها؟ فقال: أدعوك لتذهب إلى العمرة، فتفاجأت من هذه الدعوة وشكرته ودعوت له بالخير غير أنني قلت له: أنا أعتذر! فقال: أدعوك لزيارة الكعبة ولزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وتعتذر!! فسكت برهة ثم قلت له: الشوق في قلبي كبير جداً غير أنني أخاف في زيارتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يقول لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أتى بك إلى هنا؟! قم فكن مع الناس ساندهم وساعدهم وعاونهم.

من جعل الله له خدمة الناس وتيسير أمرهم على يديه فليحمد الله ويشكره فإن الله قد فتح له باباً كبيراً من أبواب القرب إليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ» [البخاري ومسلم].

أحد الشباب ذو قوة وهمة عالية غير أنه مع نزول هذه الأزمة وشدتها جعلته يقع أرضاً فلما كان منه ذلك وجدت أن خيرَ أمرٍ يفعله هو أن يكون من المتطوعين لخدمة الناس فلما عمل بخدمة الناس ذهب كثير من اليأس والخور لديه، فعاد ليستخدم ذكاءه بأمور خيرة.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ .

﴿لَهُمْ﴾: اللام للاختصاص.

﴿جَنَّاتُ﴾: وليس جنة واحدة.

﴿نُزُلًا﴾: أي ضيافة من الله عز وجل.

فجنات الفردوس هي لهم خالصة دون غيرهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ» [البخاري].

أوسط كل شيء عند العرب أغلاه وأنفسه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ .

ما يُمَيِّزُ الجنة هو أنك خالد فيها، فإزالة النعيم بعد تذوقه أصعب من عدم وجوده.

قيل: **ثلاث في الجنة خير من الجنة: الخلود في الجنة خير من الجنة، وخدمة الملائكة في الجنة خير من الجنة، ورؤية الله في الجنة خير من الجنة.**

﴿حِوَلًا﴾: لا يتمنون تحويلاً عن هذه الجنة.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: **قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالَ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى** ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، **قَالُوا: أُوتِينَا عِلْمًا كَثِيرًا أُوتِينَا التَّوْرَاةَ، وَمَنْ أُوتِيَ التَّوْرَاةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، فَأُنْزِلَتْ** ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ [الكهف: 109] **إِلَى آخِرِ الْآيَةِ** [الترمذي].

فلو أن البحر كان حبراً وكُتبت أوامر الله ونواهيه ومواعظه وآياته لانتهى البحر قبل أن تنتهي آيات ربي ولو جئنا بأبحرٍ مع البحر ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27].

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ .

أي لا أعلم إلا ما يعلمني الله تعالى.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

قال العلماء هناك شرطان لقبول العمل:

أ. أن يكون العمل صالحاً.

ب. أن يكون العمل خالصاً لوجه الله تعالى.

فمهما عملنا من الصالحات تعالوا لنصحح نياتنا راجين أن يرضى الله تعالى عنا.

وأخيراً:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: **إِنِّي أُضْمِرُ أَنْ أَقُومَ سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ فَيَغْلِبُنِي النَّوْمُ، فَقَالَ:** (**إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُومَ أَيَّ سَاعَةٍ شِئْتَ مِنَ اللَّيْلِ فَاقْرَأْ إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ:** ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ **إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوقِظُكَ مَتَى شِئْتَ مِنَ اللَّيْلِ**) [تفسير القرطبي].

عَنْ عَبْدَةَ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، قَالَ: (**مَنْ قَرَأَ آخِرَ سُورَةِ الْكَهْفِ لِسَاعَةٍ يُرِيدُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، قَامَهَا**) **قَالَ عَبْدَةُ:** (**فَجَرَّبْنَاهُ فَوَجَدْنَاهُ كَذَلِكَ**) [سنن الدارمي].

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.